اسمحوا لي بأن ابدأ برواية قصة صغيرة .

أثناء الحروب الصليبية في العصور الوسطى ، كانت القوات الصليبية تحاصر دمياط في مصر . وهي اليوم مدينة كبيرة . وكانت القوات المصرية الاسلامية تقاوم . طال الحصار من دون نتيجة .

وفي يوم هادئ لا قتال فيه . تقدم من المعسكر الصليبي راهب بردائه الكهنوتي المميز ، حاملاً الانجيل . ولم يكن يحمل أي سلاح ولا حتى عصا .

فوجئ المسلمون به ، متقدماً من معسكر العدو . ولكنهم لم يتجرأوا على ايذائه .

فلباسه يدلّ على انه راهب وقسيس ، والقرآن الكريم يمتدح المسيحيين لأنهم فيهم قسيسين ورهباناً .

كذلك فان الانجيل الذي يحمله ، مقدّس من المسلمين ، لأنهم يؤمنون بأنه منزل من عند الله ، وأن فيه هدىً ونور ، كما يقول عنه القرآن أيضاً . بل ان القرآن يذهب الى أبعد من ذلك ، ويقول : " فليحكم أهل الانجيل بما أنزل الله فيه ".

من أجل ذلك استقبل الجنود المسلمون هذا الراهب القادم من معسكر العدو باحترام ، ولكن بارتباك (Confusion) وسألوه : "من أنت وماذا تريد ؟" ، فأشار اليهم بأنه يريد مقابلة الملك .

بعد تردد ومشاورات ، نُقل الراهب الى معسكر الملك الكامل ، وكان ابن عم صلاح الدين الأيوبي .. هناك أعاد الملك طرح السؤال عليه : ماذا تريد ؟ . قال الراهب : أريد السلام .

- ولكنكم تقاتلوننا ..
- نحن لا نقاتل من أجل القتال ، ولكن لأننا نريد أن يكون طريقنا الى القدس طريق سلام وأمن .

سأل الملك : وكيف يكون ذلك ؟

قال : العملية بسيطة ، تتحولوا جميعاً الى المسيحية (convert) فتنتهي المشكلة ونصبح جميعاً أخوة .

لم يغضب الملك . قال له سوف أجمعك الى عدد من العلماء المسلمين لتتناقشوا في الأمر وتقرروا معاً أي الدينين على حق ، ومن يلتحق بدين الآخر أنت أو نحن .

في الاجتماع الذي عقد بضيافة الملك ، قدم أحد العلماء المسلمين اقتراحاً جريئاً قال بإضرام نار حامية والقاء الراهب بإرادته في هذه النار . فإذا خرج منها سالماً ، فمعنى ذلك ان دينه – المسيحية – على حق ، ومن واجب المسلمين جميعاً اتباعه .

لم يفكر الراهب الضيف كثيراً . فبادر الى القول : أنا أوافق .. اذا خرجت من النار سليماً ، تكون المسيحية هي دين الحق . وتتحولون جميعاً الى المسيحية . أما اذا اكلتني النار فان ذلك سيكون بسبب ذنوبي الشخصية . أي انه حتى في هذه الحالة ستكون المسيحية دين الحق .

أعجب الملك والعلماء بروحانيته العالية وبذكائه المتوقد .

وانتهى الحوار بعودة الراهب الى معسكره محملاً بالهدايا الملكية التي اعتقد انها معروضة اليوم حول ضريحه . انه القديس فرنسيس الأسيزي الذي نجتمع اليوم تحت مظلته الروحية السامية ، بفضل مبادرة جماعة سانت ايجيديو .

السيدات والسادة ،

لقد اردت أن اروي لكم هذه القصة الواقعية ليس فقط لأننا في حرم القديس فرنسيس ، ولكن من أجل أن أطرح الأسئلة التالية :

لو ان القديس فرنسيس يعود اليوم الى الحياة ، ويتوجه الى مواقع الاضطرابات في الشرق الأوسط ، كيف يكون استقباله من قبل داعش وأمثالها ؟.

هل كانوا سيحترمون زيّه الديني وانجيله المقدس ؟..

هل كانوا سيستمعون اليه يعبّر عن قناعاته الدينية ؟..

هل كانوا سيتعاملون معه كمسيحي مؤمن في ضوء ما يقوله القرآن ونبي الاسلام محمد عليه السلام ، عن المسيحيين ؟.

لا أعتقد ان أياً منا يحتاج الى جواب .. كلنا نعرف الجواب .

نعرف مصير الأب الايطالي الجزويتي باولو دالوليو Paolo Dalloglaio الذي نذر حياته لخدمة المسلمين والمسيحيين في سورية . ونعرف مصير المطران يوحنا ابراهيم الذي نفتقده اليوم كما في كل نشاطات سانت ايجيديو ومن على منابر الحوار الاسلامي – المسيحي في الشرق الأوسط وفي العالم .

ونعرف ماذا حلّ بالعديد من الأديرة والكنائس التي دمرت رغم ان القرآن يصفها بأنها من بيوت الله ، ورغم ان النبي محمد حذر المسلمين من الاساءة اليها وحرم عليهم استخدام ولو حجر واحد من مبنى كنيسة في بناء بيت للمسلمين واعتبر ذلك معصية لله ولرسوله .

لم يتغير الاسلام .. النص القرآني ثابت ، والحديث النبوي واضح . لم يتغير لا قبل لقاء القديس فرنسيس مع الملك الكامل في مصر ، ولا بعده . الذي تغير هو ان مجموعة من الناقمين اليائسين المتشددين ، صادروا الاسلام واتخذوه اداة للانتقام . وتحولوا الى حركة توتاليرالية جديدة ، ولكن هذه المرة باسم الدين .

من أجل ذلك فان نحن المسلمين ندرك جيداً ان علينا واجب تحرير الدين من هذه المصادرة وإعادة ترتيب شؤون البيت الداخلي الاسلامي بما يتوافق مع المبادئ الإيمانية الاسلامية السمحة ، ومع المبادئ العامة التي تقوم عليها الحضارة الانسانية في القرن الواحد والعشرين .

ومن أجل ذلك ايضاً ، فان التصدي للتطرف الديني هو واجب اسلامي اولاً وفي الدرجة الأولى . فالاسلام يؤمن بالتعدد ويعتبر الاختلاف بين الناس تعبيراً عن إرادة إلهية في ان يكون الناس مختلفين . ولذلك دعاهم الله الى التعارف . والحوار هو المدخل الى التعارف ، ولكن لا حوار من دون حرية . والحرية الدينية هي أمّ الحريات ، كما نصت على ذلك وثيقة الارشاد الرسولي حول الشرق الأوسط ، وكما نصت على ذلك ايضاً وثيقة الأزهر الشريف حول الحريات الأساسية . من أجل ذلك أثبت البابا فرنسيس انه قائد روحي انساني عندما قال انه "لا يوجد دين ارهابي ولكن يوجد ارهابيون في كل دين " .

السيدات والسادة ،

لقد تعلمت من قصة القديس فرنسيس في الشرق ان العلاقات الانسانية حتى بين أهل الأديان المختلفة لا تقوم على الالغاء كما تفعل داعش اليوم ، ولا حتى على التسامح ، كما يعتقد بعض أصحاب النوايا الحسنة . ولكنها تقوم على الايمان بالتعدد والاختلاف ، وعلى احترام الأسس والقواعد الفكرية والعقائدية التي يقوم عليها التعدد والاختلاف ، وبشكل يسمو فوق التسامح الذي يصفه الفيلسوف "نيتشه" بأنه اهانة للآخر .

ان دولة المواطنة لا تقوم على التسامح ولكنها تقوم على الحقوق . فالتسامح قد يكون مدخلاً وأساساً لانتهاك الحقوق لدى أول تحول أو توتر في العلاقات . وهو يمارس بفوقية وباستعلاء المتسامِح مع المتسامَح معه. اما مبدأ الحق ، فانه يقوم على المساواة والعدالة ، ويصون العلاقات الانسانية والوطنية على قاعدة الاحترام المتبادل . وهو ما نحتاج الى ان تكرسه دولنا الوطنية .

اسمحوا لي أخيراً أن أنهي كلمتي بالتأكيد على الحقيقة التالية ، وهي أن الآخر هو الأنا المختلف . وانه كلما افسحت في نفسي مكاناً للآخر ، فهمتُ نفسي افضل .. وفهمت الآخر أفضل . فقط من خلال حرية التعبير وحرية الإيمان وحرية ممارسة الإيمان ، أستطيع أن أفهم ماذا يعني أن تكون أنت .

شكراً لسانت إيجيديو .. شكراً لكم .

محمد السماك